

## عنوان المداخلة: ملامح التجربة القصصية القصيرة في الجزائر،

### قراءة في مجموعة الهدية القصصية لجميلة خمار أنموذجاً

د. زليخة ياحي، جامعة الجزائر 02

zoulikha.yahi@univ-alger2.dz

#### مقدمة:

إنَّ التجربة القصصية في الجزائر ازدهرت بشكل لافت للانتباه؛ حيث نلاحظ في الآونة الأخيرة إقبال الأدباء والمبدعين على الكتابة القصصية بما يتوافق والتحوّلات التي يشهدها المجتمع الجزائري، وقد احتلت القصة القصيرة مكانة ضمن الألوان الأدبية الأخرى، لكنّها تفرّدت بخصائص وميزات جعلتها محطّ الاهتمام لدى فئة الباحثين والمشتغلين بهذا الفنّ الأدبي.

ولعلّ رصد تطوّر الحركة القصصية في الجزائر، والكشف عن خصوصيّتها باعتبارها رافداً من روافد الإبداع في الأدب الجزائري يجعلنا نقول بأنّ القصة من أبرز الأجناس الأدبية التي تعكس ماضي الأمة وحاضرها ومستقبلها، وليس هذا حالها في الجزائر فحسب، بل حتّى في الوطن العربي، ويرجع ذلك إلى مرونتها وقدرتها على استيعاب ما يحدث في مختلف مناحي الحياة، وكأنّها القلب النابض له، والمرآة العاكسة لأحواله، فقد استطاعت بمرور الوقت أن تشكّل ظاهرة أدبية بارزة توغّلت وأسست لنفسها وجوداً ومكانة، طبعتها بنكهة كتابية وبلاغية جعل كتابها يعتمدون تقنيّات، وأساليب خاصّة أفرزت جماليّة أفردت من خلالها القصة القصيرة بمعالم ومعالم مغايرة عن بقية الألوان الأدبية.

والمتمّثل في سيرورة هذا الفنّ في الجزائر يلاحظ بأنّه مرّ بتحوّلات كثيرة بدءاً بالمقال القصصي، ثمّ الصّورة القصصية، لتتطوّر القصة القصيرة مع مرور الوقت بفضل اليقظة الفكرية، والبعثات إلى المشرق العربي ورغبة الأدباء الجزائريين في خوض غمار التجربة الكتابية في هذا الفنّ، وعلى هذا النحو نظر إلى القصة القصيرة بكونها مجرد قصّة تقع في صفحات قلائل بل هي لون من ألوان الأدب الحديث ظهر في أواخر القرن التاسع عشر، وله خصائص ومميّزات شكلية معيّنة، وقبل القرن التاسع عشر شهد تاريخ الآداب الغربية عدّة

محاولات لكتابة القصص القصيرة، وقامت أولى المحاولات في القرن الرابع عشر في روما داخل حجرة فسيحة من حجرات قصر الفاتيكان، كانوا يطلقون عليها اسم مصنع الأكاذيب، أما في الأدب العربي الحديث فقد تأخر ظهور فنّ القصة مقارنة بالرواية والمسرحية، حتى أنه لم يشهد إقبالا واهتماما من لدن الكتاب والباحثين كما شهدته بقية الفنون الأدبية، خصوصا في الجزائر.

وانطلاقا مما طرح في هذا المؤتمر الدولي الأول الموسوم: القصة القصيرة بين الواقع والطموح، جاءت هذه الورقة البحثية الموسومة: ملامح التجربة القصصية القصيرة في الجزائر، قراءة في مجموعة الهدية القصصية لجميلة خمار أنموذجا، والتي نروم من خلالها إلى محاولة تسليط الضوء على واقع القصة في الوطن العربي عموما، وفي الجزائر على وجه الخصوص، بالإضافة إلى محاولة تعريفها، وتبيان أبرز أعلامها، ومراحلها، ثم نعرّج إلى دراسة في مجموعة الهدية القصصية لجميلة خمار، لنتبين مختلف القضايا التي عالجتها في عينة من قصصها، وسبيلنا في ذلك آليات منهجية مختلفة .

## 1. حدود القصة القصيرة ونشأتها:

تعتبر القصة القصيرة فنا حديث العهد، لم تعرفه الآداب الغربية إلا منذ حوالي قرن فقط، ويعود تاريخ ظهورها إلى القرن التاسع عشر، فهي ليس مجرد قصة تقع في صفحات قلائل، بل هي لون من ألوان الأدب الحديث، له مميزات وخصائص شكلية معينة، وقبل القرن التاسع عشر شهد تاريخ الآداب الغربية عدّة محاولات لكتابة القصص القصيرة - ولكنها كانت قصصا قصيرة من ناحية الحجم فقط لا من ناحية الشكل - ولقد قامت أولى هذه المحاولات في القرن الرابع عشر في روما داخل حجرة فسيحة من حجرات قصر الفاتيكان، كانوا يطلقون عليها اسم مصنع الأكاذيب، اعتاد أن يتردد عليها في المساء نفر من سكرتيري البابا وأصدقائهم للهو والتسلية وتبادل الأخبار، وفي مصنع الأكاذيب هذا كانت تخترع أو تقصّ كثير من النوادر الطريفة عن رجال ونساء إيطاليا، بل وعن البابا نفسه، مما دعا الكثيرين من الأهالي إلى التردد على هذه الندوات حتى لا يهزأ بهم في غيبتهم<sup>2</sup>.

وبهذا تعدّ القصة القصيرة في شكلها الفني الحديث آخر الأجناس الأدبية ظهوراً، فهي لا تذهب كما سبق الذكر إلى أبعد من القرن التاسع عشر، "ولكنّها في الوقت نفسه من أعرق ألوان الأدب تاريخاً، فمنذ أن جاء الإنسان إلى الحياة كان الطّفّل يقفز ويضرب، يعمل ويغني، ويتحدّث ويخترع، ويحكي في الوقت نفسه، وتجذب الجدّة حفيدها بالحكاية وترعبه بالأسطورة، ويلقى الإنسان آخر بعيداً عن شواغل الحياة والعيش، فيملأن فراغهما بسمر تلعب فيه الحكاية دوراً ملحوظاً، خرافة تمثّل خوارق الطّبيعة، أو مجنوناً يدغدغ عواطف السّمع، أو سخرية تثير الضّحك، أو مركباً للوعظ والتّربية"<sup>3</sup> من خلال الرّسائل الهادفة التي يروم الكاتب تبليغها للمتلقّي. أمّا فيما يتعلّق بحدود القصة فهي: "الحادثة تقع في الكون أو في الحياة فتلامس الأديب بوقع مؤلم، أو متأمّل وتتفاعل في ذاته، ويخف لتجسيدها وبنائها في شكل لغوي ذي ابنيّة متعدّدة، أو أشكال أو أساليب متنوّعة حسب ما يمليه مذهبه واتّجاهه"<sup>4</sup> في الحياة وفي المجال الكتابي.

بل والقصة "حادثة أو مجموعة حوادث يرويها كاتب بأسلوب فني.. والفنّ القصصي من أشهر أنواع النثر، وهو لا يقتصر على نوع واحد فمنه الرّواية، والقصة القصيرة والأقصوصة، والأمم عرفت في نشأتها الأولى الأساطير، والحكايات التي كان الناس يتداولونها جيلاً بعد جيل على نحو عفوي دون قيود أو شروط"<sup>5</sup> تحدّ من مساحة كتابة الأديب وخياله، والموضوع الذي يريد الحديث عنه.

وإذا كانت الرّواية أوسع من القصة من حيث الطّول والأحداث والشخصيات، تبقى القصة لونا آخر من الفنّ القصصي، "يكون عادة محدود بزمن معيّن، وأحداث معيّنة، وشخص ليسوا من الكثرة كما نجد في الرّواية، أمّا القصة القصيرة فتقدّم جواً واحداً، وتقتصر أحياناً على حدث واحد لشخص واحد، أو لشخص معدودين، أمّا الأقصوصة فتعرض لموقف مكثّف في لحظة من لحظات إحساس شخص ما إزاء حدث من الأحداث"<sup>6</sup>، يختلف منبعه، والموضوع الذي يدور حوله.

كما تتّصف القصة القصيرة "بالفكرة الواحدة المركّزة التي يقوم بتصويرها، وتجسيدها شخص واحد، أو عدد قليل من الأشخاص تربطهم وحدة الموضوع، وتتكوّن القصة من حادثة رئيسية محدّدة تقع في زمان ومكان

محدّد، وأمّا حجم القصّة القصيرة فلا يتجاوز عشرة آلاف كلمة؛ حيث يقوم القاصّ بتصوير الشّخصيّات<sup>7</sup>، وفقا للموضوع المطروق، ويبقى الفنّ القصصي جزءا من الطّبيعة البشريّة التي تحكي كلّ ما يمتّ لها بصل وبواقع الحياة كذلك.

ويقول في هذا الصّدّد إدجار آلان بو: "إنّ القصّة القصيرة بحقّ تختلف بصفة أساسيّة عن القصّة بوحدة الانطباع impression، ويمكن أن نلاحظ بهذه المناسبة أنّ القصّة القصيرة غالبا ما تحقّق الوحدات الثّلاثة التي عرفتها المسرحيّة الفرنسيّة الكلاسيكيّة، فهي تمثّل حدثا واحدا يقع في وقت واحد، وتتناول القصّة القصيرة شخصيّة مفردة، أو عاطفة أو مجموعة من العواطف التي أثارها موقف مفرد"<sup>8</sup>.

وهنا تطرح الفروق الموجودة بين القصّة القصيرة والرّواية من حيث الحجم، والطّول وبقية العناصر، "وأول ما نلاحظ منه أنّ الرّواية أخذت وتأخذ في كلّ بيئة لونا، وفي كلّ عنصر شكلا، على حين أنّ القصّة، وهي أكثر شبابا، وفي الوقت نفسه أقدم الأجناس الأدبيّة تاريخا، ظلّت وفيّة لماضيها، ولم تنتكّر لأصولها الأولى، إنّها حتّى اليوم تقال في كلّ مكان بين الشعوب البدائيّة، وعند أشدّ الأمم رقيّا، ولو أنّها في الحالة الأولى تفنّد نية القيام بعمل فنّي، وهو ما يميّزها عن الثّانية"<sup>9</sup>، وبهذا تظلّ القصّة القصيرة محتفظة بخصائص تفردها عن بقية الفنون الأدبيّة.

## 2. ملامح التجربة القصصية القصيرة في الجزائر:

إذا كان جيوفاني بوكاتشيو هو أول من وضع اللبّات الأولى لهذا الفنّ بتأليفه الديكاميرون أو المائة قصّة قصيرة سنة 1350م، بحيث استطاع من خلالها سبر غور النفس البشريّة، سطع بالموازاة مع ذلك نجم إدجار آلان بو في القرن التّاسع عشر؛ الذي وجد في القصّة القصيرة "المجال الذي يتحقّق فيه التّناسق، ووحدة الفنّ، ففيها يمكن لكلّ كلمة، وكلّ سطر وكلّ فقرة أن يكون لها أثرها في عقل القارئ"<sup>10</sup>، لترتسم ملامحها مع غوغول وجي دي موباسان، وغيرهما من الكتاب، وكذلك حالها في الأدب العربي مع ثلّة من أقطابها على غرار تيمور، حسين هيكل ويوسف إدريس وغيرهم.

ولأنّ القصة القصيرة تستجيب للذائقة السائدة في كلّ فترة زمنيّة، فهي إحدى الألوان الأدبيّة التي تأخّر ظهورها في الوطن العربي عموماً، وفي الجزائر على وجه الخصوص، وهذا لظروف كثيرة، أبرزها محاولة الاستعمار طمس معالم الهوية الجزائريّة، والقضاء عليها، وهذا ما أدّى إلى تأخّر الأدب الجزائري، والقصة القصيرة أيضاً، وفي هذا السياق يقول الطاهر أحمد مكّي: "وكانت الجزائر آخر من لحق بالركب، وتقدّم لنا في هذا المجال ثلاثة من القصاص، أبو العيد دودو، ويكتب على قلة قصصاً تسجيلياً يلتقط مادته من القطاعات الشعبيّة، والطاهر وطار، ويرجى له مستقبل باهر إذا واصل الرّحلة بنفس القوّة، فقد طوى المسافة التي سبقت فيها الجزائر ليكون على مستوى القصة في بقية أنحاء الوطن العربي، تقنيّة ومادة، وهو تقدّم في نزعتة، وينز إلى الرّمز حين يعزّ عليه الوضوح، وأحمد منور وهو شاب في أوّل الطريق يبشّر بغد طيّب، إذا واصل الرّحلة ولم يتوقّف، وأخذ نفسه بتعميق التجربة، معاناة وتلملا، وأحكم قبضته على تقنيّة القصة قراءة وتعلّماً"<sup>11</sup>.

وقد عرفت الجزائر لونين من الكتابة، كما أنّ الأدب الجزائري عموماً شهد قبل انبعاث الهبة النهضويّة التي كانت إرهاباتها بالمشرق العربي ركوداً، وحركة متناقلة الخطى على كلّ الأصعدة، وبالأخصّ في المرحلة الكولونياليّة، لكن ما إن انطلقت ثورة التحرير حتّى انتشرت يقظة شملت مجالات، وميادين عديدة، والتي كان الأدب من بينها.

وقد عرف هذا الأدب إنتاجاً وفيراً لكتابات باللّغة الفرنسيّة، مقارنة مع الكتابات باللّغة العربيّة، التي عرفت انحساراً ملحوظاً في جزائر أريد لها أن تكون فرنسيّة مغتربة خاضعة لكيان استعماري "تحكّم في أنفاسها إلى حدّ بعيد"<sup>12</sup>، فبديهي بعد ذلك أن تكون الكتابات العربيّة خاضعة لرقابة مقلقة كان الاستعمار من أسبابها الرئيسيّة، وبديهي أيضاً أن "يخضع الأدب المكتوب باللّغة العربيّة بشكل عامّ لولادات قيصريّة"<sup>13</sup>.

وبغضّ النظر عن انتشار الأدب المكتوب باللّغة الفرنسيّة، وقلة ذيوع الأدب المكتوب باللّغة العربيّة إلى وقت قريب، فإنّ هذا لا ينفى وجود أدب جزائري أبدعه الرّجل كما أبدعته المرأة اختصّ بموضوعات، وتناول مسائل من عمق هذه البلاد.

ومن أمثلة الكاتبات باللّغة الفرنسيّة ما نقرأه من إنتاجات فنّيّة للطّاوس عمروش وآسيا جبار، وروايات مليكة مقدم، ونينا بوراوي، وتعتبر جميلة دباش السّباقة إلى الكتابة باللّغة الفرنسيّة، كما تعدّ "الأدبية عميروش الطاوس أهمّ روائيّة جزائريّة تبرز في نهاية أربعينات القرن الماضي، وقد اشتهرت فيما بعد بهذا الاسم، ماري لويس"<sup>14</sup>.

وكذلك حال الأنواع الأخرى في الأدب الجزائري المنتجة باللّغة الفرنسيّة كجنس القصّة القصيرة، والشّعر، وحتىّ ميدان البحث العلمي، واشتهر فيه: آسيا جبار بمجموعتها القصصيّة، نساء الجزائر في بيوتهنّ les femmes d'alger dans leur appartements، وفي مجال الشعر نجد: خبطاني ليندة، وعنوان ديوانها: دمة ووردة une larme et une rose، وارجامنة نجاة، وعنوان مجموعتها الشّعريّة: ظلّ حياة l'ombre d'une vie، والشّاعرة نادية قندوز: ولها ديوانان الأوّل بعنوان: آمال amal، والثّاني: الحبل la corde<sup>15</sup> وغيرهنّ من المبدعات اللّواتي وجدن الفرصة السّانحة للتّعبير باللّغة الفرنسيّة، ويرجع ذلك للتّسهيلات الّتي وجدنها، والظّروف الّتي مرّت بها الجزائر.

ولا ينبغي ظهور هذا النوع من الكتابة الإبداع باللّغة العربيّة، لكنّه برز متأخراً نوعاً ما عن نظيره باللّغة الفرنسيّة؛ فقد "برزت زليخة السّعودي كأقوى ما تكون الأصوات الفنّيّة الأصليّة، تحمل في نفسها الشّاعريّة الطّيبة بوادر الوعي الثّوري التّقديمي"<sup>16</sup>، كما برزت زهور ونيسي الّتي "كانت أوّل امرأة تشقّ طريقها، وبخطى سريعة، نحو النّشر ومزاحمة الرّجال في إنتاج القصّة، والرّواية، والمذكّرات فصدر لها الرّصيف النّائم، وعلى الشّاطئ الآخر، ومن يوميات مدرّسة حرّة، وغيرها"<sup>17</sup> من الكاتبات والكتاب الّذين ساهموا من خلال كتاباتهم في إثراء المكتبة الأدبيّة الجزائريّة.

وإذا كان المقال القصصي هو البذرة الأولى لبداية القصّة، فإنّ الصّورة القصصيّة هي البداية الحقيقيّة للقصّة الجزائريّة القصيرة، وأوّل صورة قصصيّة ظهرت هي عائشة<sup>18</sup>، بينما يرجع عبد المالك مرتاض ميلاد القصّة القصيرة في الجزائر على يد "محمد السّعيد الزّاهري الّذي نشر في الجزائر محاولة قصصيّة عنوانها فرنسوا

والرشيد، ومنذ ذلك اليوم والقصة الجزائرية تدرج ثم تحبو، ثم تنهض على ساقيها، ثم تتطوّر بها الحياة، وتتقدّم بها السبيل إلى غاية الفنّ القصصي خطوات شاسعة فقد وجدنا هذه القصة تخطو خطوات خجولة طورا، وجريئة طورا آخر على أيدي محمد السعيد الزاهري، ومحمد العابد الجلالي، وأحمد بن عاشور وأحمد رضا حوحو، ثمّ أبي القاسم سعد الله، فهؤلاء الخمسة أسهموا حتما في بناء هذا الصرح الضخم<sup>19</sup>.

بينما تذهب عائدة أديب بامية إلى أنّ أول قصة منشورة هي قصة: دمة على البؤساء التي نشرتها جريدة الشهاب في عدديها الصادرين يومي 18. 28 أكتوبر عام 1926م<sup>20</sup>، بينما يشير عبد الله بن حلي إلى قيادة أحمد رضا حوحو، فهو الرائد الذي وضع اللبنة الأولى للقصة العربية الحديثة في الجزائر، بينما صالح خرفي نسب الريادة إلى محمد بن عايد الجلالي مرة، ثمّ رمضان حمود مرة أخرى<sup>21</sup>، وأيّا كانت الزادة والأسبقية فالشاهد من كلّ هذا أنّ الجزائر عرفت نتاجات أدبية في فنّ القصة القصيرة.

### 3. مراحل تطوّر القصة القصيرة في الجزائر:

#### ✓ مرحلة المقال القصصي:

- كان الكاتب يميل فيه إلى الوصف إلى حدّ إيقال النصّ.
- انصبّ الاهتمام على الحدث، والميل إلى التقلّ الحرفي للواقع.
- كان المقال القصصي عبارة عن مزيج من القصة وغير القصة.
- إنّه خليط من المقالة والرواية والمقامة والحكاية.
- شخصيات ثابتة لا تمنو مع الحدث.
- التبرة الخطابية المحملة بالوعظ والإرشاد لأهداف إصلاحية.

#### ✓ مرحلة الصورة القصصية:

- الاهتمام برسم الحدث كما هو.
- رسم الشخصية في ذاتها وفي ثباتها بطريقة لا تتفاعل فيها مع الحدث.

- الحوار يعبر عن أفكار الكاتب في إسقاط واضح.

- وصف الواقع دون تحليله.

- اعتماد الأسلوب المسترسل والجمل الطويلة، والتراكيب القويّة القديمة بروح تعليميّة واضحة.

✓ **مرحلة القصة الاجتماعية:** وفيها عمد الكتاب إلى رسم صورة المجتمع الجزائري، وتصوير معاناته اليومية الطّافحة بمظاهر الفقر والبؤس، والمترعة بمشاكل الحياة اليومية، وأبر من يمثلها: أحمد رضا حوحو.

✓ **مرحلة القصة المكتوبة خارج الوطن:** وهي التي كتبها الأدباء الجزائريون المقيمون خارج الوطن، وقد ساعدتهم وجودهم في بلدان عربيّة على مواكبة تطوّر الأدب العربي عامّة، والفنّ القصصي خاصّة، بالإضافة إلى الاستفادة ممّا ترجم إلى اللّغة العربيّة.

✓ **مرحلة القصة الاجتماعية السياسيّة منذ الاستقلال:** وهي مرحلة النّضج الفنّي للقصة القصيرة في الجزائر، وأبرز روّادها: الطّاهر وطّار، مرزاق بقطاش، عبد الحميد بن هدوقة<sup>22</sup>.

كما شهدت القصة القصيرة الجزائريّة تعدّدا في موضوعاتها التي لم تقتصر على الجانب الاجتماعي، بل تطرّق روّادها إلى المواضيع الوطنيّة، والوجدانيّة، والإنسانيّة وحتىّ الدنيّة ليظهر هذا مدى إقبال المبدعين على هذا اللون الأدبي، والمساهمة في تطويره ورفيّه وازدهاره.

#### 4. قراءة في مجموعة الهدية القصصيّة لجميلة خمار أنموذجا:

إنّ الأدب مرآة عاكسة للواقع الاجتماعي وللاطوار التّاريخيّة لدى كلّ الشعوب؛ بحيث يعتبر الكاتب المعبر عن ذلك، والأمر كذلك عند الكاتب أو الكاتبة في الجزائر التي مرّت بتجارب كتابيّة متفاوتة الخطى منها القصة، التي كتبت فيها المرأة رغم ما لقيته من إكراه وطرد حتّى لا تكتب، وعلى الرّغم من ذلك أبقى قلم المبدع الفنّان الذي رغم الدماء السائلة كالأنهار لم يستطع الصّراخ بفيه لكنّه صرخ بكتاباتهِ التي من خلالها سعى جاهدا إلى تسليط كلّ الأنوار؛ لإجلاء كلّ الظلام، وكشف الخبايا التي طالما ميّزت تلك الفترة، ومن هؤلاء القاصّة

الجزائريّة جميلة خمار في مجموعتها القصصيّة التي عنونتها بالهدية، فعند ولوج المحتوى يداهمك المطلع بالعنوان المتموّج: لقطات من العشريّة الحمراء؛ الذي تنضوي تحت لوائه أربع قصص سنأتي على نموذجين بالتّحليل والنّقد لنعكس الصّورة في مرآة تبيّن حال الجزائر وشعبها آنذاك.

من يأكل التّورتة؟ قصّة افتتحت بها المجموعة القصصيّة يدور محتواها حول رصاصة طائشة أصابت فتى في مقتبل العمر بالتّحديد في التاسعة من عمره يدعى مصطفى، سمح له بالخروج ليلا "الأول مرّة يسمح له بالخروج ليلا مع أقرانه"<sup>23</sup>، ليصلي صلاة العشاء ثمّ يعود، لكنّه لم يعد؛ لأنّ القدر سبق ما بقي من عمر، "أصابته رصاصة طائشة أرسلها ملثمّ مجهول أردته قتيلا"<sup>24</sup>، كابد الألم تلو الألم مع أمل النّجاة لكن لا حياة لمن تنادي، ترنّح ثمّ أصابه الوهن تذكّر الكلّ الأم، الأنسة، وزملاءه في المدرسة حتّى قارب آخر الأنفاس.

بحث الجميع عنه دون طائل يذكر، وما زاد من براعة التّصوير الذي تفنّنت جميلة خمار في حبكة، وسبكه قبل لفظ أنفاسه قولها والأب يبحث عنه: "أبي... أبي... أنا هنا .. عبثا حاول الفكاك من الطّين وفاضت دموعه تبلل صدغيه ... وتزيد من حلقة الظّلام"<sup>25</sup>، وبعد اللّيلة المظلمة أشرقت أشعة الشّمس الصّباحيّة، وكعادة الأطفال شرعوا في اللّعب، وأحضروا الكرة "رماها أحدهم بقوّة .. تدرجت انحدرت واستقرّت في قاع الهوة"<sup>26</sup>.

بعد ذلك اندفع صبي صغير من لدن نفسه ليسترجع الكرة بعد أن حاول الكرة، لكنّه ذهل لهول ما رآه "تراجع مذعورا تسلّق المنحدر على أربع كأرنب مطارّد وأطلق ساقيه للريّح، وصوته الحاد يسبقه بأمتار مصطفى... مصطفى... وجدت مصطفى"<sup>27</sup>، وبعد لحظات وصل الصّوت أسماع زملائه فجاء الجميع ركضا إلى المكان ومعهم الأب، وانظر إلى عظيم المصاب، وقد انتشل ابنه من الطّين، وهو جثّة هامدة "حمل الأب ابنه الضّحية وقد تلطّخت عباة البيضاء بالطّين والدّماء، كانت دموعه تنحدر مبلّلة لحيته الرّماديّة"<sup>28</sup>، وشرع بالبكاء كالثكلى، منظر يدمي كلّ من فقد فلذة كبده، في سنوات صحّ أن تتعت بالعجاف، ومأساة بلون الحمرة لم تحدث لمصطفى بل لآلاف الأطفال من أترابه، وبأشبع الوسائل التي يجنّ الواحد إذا تخيلها، وهو في بيته ومع أسرته، فكيف الأمر بالكاتبة التي نقلت الصّورة بدقّة؛ حيث ختمت القصّة بقولها: "انطفأت الشّموع من يأكل

التورته يا خالتي... من؟<sup>29</sup>، طبعا لا أحد لأنّ صاحبها انطفأ عمره قبل أن تنطفئ شموعه، وشموع الهدية المحضرة له.

وهناك قصة ثانية بعنوان: قتلوا الفرحة؛ تدور حول شخصيّة سفيان الذي استكمل بناء حياته كونه شرطيا ولم يبق له إلا أن يكمل نصف دينه، لكن الأمر لم يتم؛ فبداية قال: "أخطب ليلي هذا الخميس"<sup>30</sup>، ثم قال: "العرس هذا الصيف"<sup>31</sup>، ثم تتالت بعد ذلك التّحضيرات لدى العائلتين، وكالعادة أجواء مليئة بالفرح والغبطة التي لا يمكن تخيلها، ويصل اليوم الموعود "يوم الخميس بيت الخالة صليحة أم العروس قائم على قدم وساق، وليلى والغيد الحسان عند الحلاقة من العاشرة صباحا"<sup>32</sup>، وفي المقابل أم سفيان في بيتها مع التّجهيزات اللاّزمة. يبدو الكلّ مجهّزا وعلى أحسن ما يرام حتّى سفيان بدوره استقبل ورفيقه "بالّصفيق والهتاف والتّنكيت فالحلاق صديقه"<sup>33</sup>، لكن الفرحة لم تتمّ إذ المفاجأة كانت أعظم؛ حيث "أهطل العريس ورفيقه بوابل من الرّصاص أحال المكان جحيما وصدورهم غربالا"<sup>34</sup>، يا لهول ما حدث ألم يشفع إقامة حفل مقدّس، ولا جمع حاضر يفرح دون هواده أصبح العرس مأتما و"كدّست الحلوى في صناديق كرتون دون عناية أو اهتمام، وقدّم كسكسي الفرح عشاء للمعرّين"<sup>35</sup>.

هذين التّموجين من المجموعة يصوّران الواقعة المؤلمة التي عاشها البطلين؛ الأوّل في صباه والآخر في ليلة فرحه؛ ما يعني أنّ الهمجيّة الإرهابيّة في سنون النّار الماضية لم تكن لتختار من تقتله، ولا المناسبة بل كانت تضرم حقدّها، وبغيها على الأخضر واليابس فيا سحق ما مرّ، ويا عنجيّة الأحوال.

تكابد نفسك، وأنت تدوّن ملاحظتك على نماذج كتابيّة عكست الواقع، وستدمع العين عند التّصريح أنّ الأمر مسّ آلاف الجزائريين عاشوا حقبة محزنة سوداء، لا تستطيع كلّ الكلمات أن توفيهما حقّها من التّسجيل أوّلا، والتّصوير ثانيًا، والإخبار عنها ثالثًا، كلّ هذا فيه غمط لمن ذهب ضحيّة من خرج عن جلدة البشر ولبس لباسا الوحشية القاسية؛ حيث حاولت القاصّة جميلة خمّار أن تظهر غيضا من فيض يجمل الواقعة بالحبر رغم أنّ المنظر - مؤثّر في كلّ نفس - ملؤه الدّماء والأشلاء المتناثرة هنا وهناك.

كما تتجلى صورة المرأة في قصة الهدية؛ ذلك أنّ صراع المرأة في جزائر الثورة يعكس إلى حدّ بعيد نضالها المستميت في سبيل خدمة القضية الوطنيّة لنيل الاستقلال، وإخراج المعمر الفرنسي دون جدال هبة صنعتها كلّ النساء مساندة الرّجل ليكون الجميع يدا واحدة ضدّ المحتلّ الغاشم، مقالة لم يرصدها التّاريخ فحسب بل ساهم الأدب أيضا في ذلك؛ حيث دوّنت صفحات بيضاء مشرقة أشارت إلى فترة ذهبية تبيّن دور المرأة الجزائريّة الذي لا ينكره إلاّ الجاحد، ومن هؤلاء القاصّة جميلة خمار في مجموعتها القصصيّة الهدية، وبالضبط في واحدة من قصص المجموعة التي حملت ذات العنوان.

يشير عنوان القصة الرّمزي إلى ما أرسله الله تعالى لواحدة من شخصيّات هذه القصة، بالإضافة إلى الأمل في استقلال الجزائر بعد سنوات من العذاب، والتّكليف الاستعماري، ومن خلال المنهج الوصفي التّحليلي نلمح أنّ محتوى القصة يندرج ضمن فترة من فترات الثّورة التّحريريّة؛ حيث تشارك المرأة فيها من خلال شخصية عيشة التي تعمل لحساب الثّورة عند الكومندون جون، دون أن يعرف بها أحد، وفي كلّ مرّة تنذر نساء القرية إذا استجد طارئ بعمليّة بسيطة مفادها رسالة مشفّرة عن طريق الملابس، وكيفية وضعها "دققت النّظر في شرفة جارتى عيشة طاهية الكومندون جون وعين المجاهدين عليه تملّكني رعب قاتل... لم أخطئ... القميص الأحمر مصلوب على حبل الغسيل.... ومعناه... احذروا هناك خطر"<sup>36</sup>.

وفعلا فطنت الزاوية للمغزى وحذرت نساء القرية، وبعد أن جمعت ما استطاعت هرعت مع ثلاثة أخريات إلى الفرار قبل أن المحتل عليهن القبض، وما هي إلاّ فترة حتّى غبن عن القرية بعد أن تمكّن الكومندون جون إحراق ما فيها بحثا عن دليل يسوقه إليهن، والحيلة التي اهدت إليها بطلات القصة: ذهبية، زينب، خيرة ومليكة هي لباس الرّعاة حتّى لا يتعرّف عليهنّ أحد، وهذا يعني أنّ الجزائريين أثناء الثّورة كانوا يجتهدون في اختراع الحيل والمكائد التي تخلصهم من فرنسا، والتي من خلالها ساندوا المجاهدين في الجبال، "غادرنا القرية وقد تنكّرنا في زيّ رعاة الغنم... ورغم موقفنا الصّعب الذي لا نحسد عليه ضحكنا حتّى دمت أعيننا ونحن نرى راعي غنم منتفخ البطن فقد كانت ذهبية رفيقتنا حاملا"<sup>37</sup>.

ورغم الحال الصحيّة الصّعبة ناضلت المرأة لتتقذ نفسها ومن معها دون أن تعرّض أحداً للهلاك، ومن الحيل كذلك اتّخذ بعض الرّجال للجنون سبيلاً حتّى يساند المجاهدين، ويحمل لهم الرّاد والأخبار كشخصية فرحات في هذه القصة "هو المعتوه المسكين المضحك المبكي في نظر الأهالي والعساكر أيضاً، فهم يتسلّون بمداعبته واستفزازه.."<sup>38</sup>.

وشخصية فرحات هي التي ساعدت النّسوة الأربعة للنّجاة من موت محتوم قضى به القائد جون، وبعد أن ابتعدن عن القرية بمسافة تسجّل القصة الصّراع العويص، والألم الفظيع الذي كانت تعاني منه ذهبيّة الحامل، وعدم مقدرة صويحباتها مساعدتها، وفي هذا قمة المعاناة التي حاولت القاصّة تصويره بالتّحديد.

والمثير أكثر أنّ شخصية ذهبيّة بطلة وصبورة؛ حيث سعت إلى أن تدفع وليدها لرؤية الدّنيا؛ أي الولادة لوحدها دون مساعد على الإطلاق، ما يعني أنّ المرأة آنذاك فعلاً قاست كلّ الصّعوبات، ورأت الموت أكثر من مرّة رغم ذلك هبّت بكلّ طاقتها، وساعدت أخاها الرّجل في حرب التّحرير "لا لا أريد أن أكون وحدي... أي أرجوكن... خذوني وراء تلك الصّخرة هناك.. لا أستطيع الوصول إليها... وحدي... أي أسرعن أتوسّل إليكن"<sup>39</sup>.

والمفاجأة الكبرى التي جاءت بها القصة هي نجاح ذهبيّة لوحدها في وضع المولود، ورغم ذلك تركته لوحده خلف الصّخرة بينما اعتلت الدّابة مع صويحباتها وغادرن المكان، دون أن يدركن ماذا حصل بالتّحديد "من شدة هلعنا لم نسأل عن المولود، وعندما سألتها خيرة كنّا قد ابتعدنا كثيراً"<sup>40</sup>، وبعدها أجابت ذهبيّة: "ولد ميتاً قالت ذهبيّة وهي تتحاشى النّظر إلينا"<sup>41</sup>.

يا لعظيم الصّبر الذي تتمتع به هذه المرأة الورقيّة، ومن ورائها نساء الجزائر تخسر أعلى شيء عندها وتصبر، ورغم ذلك لا تنهار بل تصمد، حتّى لا يحسّ بها من يحيط بها من أهل وأقارب، ثمّ واصلت النّسوة الأربعة المسير في الغابة بين الأحراش والحجارة، وهمّهنّ الوحيد الوصول إلى ملجأ أو معسكر للمجاهدين، وفي الطّريق وقعن في معضلة "فجأة نطّ شاب مسلّح من على صخرة ووقف معترضاً طريقنا قفوا... من أنتم؟"<sup>42</sup>.

لم تستطع النسوة أن يجبن للواقعة التي حلت بهنّ؛ حيث أدركن أنّ النهاية قد حلت، لكن ما لبثن أن حمدن الله لمعرفتهنّ أنّ فرحات وصّى عليهنّ الجنود والمجاهدين، وبعد تعب مضمّ وجهاد كانت نهاية مغامرتهنّ "قلب الجبل؛ حيث الأعلام ترفرف والجنود البواسل في حركة ونشاط دائبين، إنّه المركز الرئيسي في النّاحية والقلب الخافق والرأس المدبّر"<sup>43</sup>.

وعندما استراحت النسوة رأين كيف يخطّط المجاهدون لمهاجمة العدو من قائد ومسلين، وممرّضات وبعد ليلة كاملة جاءهم المقدم سي علي الذي أحضر معه الهدية، وقبل أن يقدمها إليهنّ سألهنّ عن المريضة وحالها ما زاد من استغرابهنّ، وغضبهنّ وبعد سؤالهنّ وضع يده في فتحة القشّابية، وأخرج شيئاً ملفوفاً "هي ذي الهدية يا سيّدي لم نصدّق أبداً، لم نصدّق أنّه فعلاً مولود يبكي، يخرج من سي علي الضابط يا للعجب... مررنا من نفس الطّريق طبيب الفرقة أجرى للمولود الإسعافات اللّازمة وقد أنقذه هنيئاً لك به يا سيّدي قال مبتسماً في حنان"<sup>44</sup>، يا لها من فرحة تقدّم على صبرها وشدة تحملها إذن الهدية هي عودة الابن الذي لم يمت بل ظنّته ميتاً، فهكذا تكافؤ الصّابرة؟؟

وبعد أن حملت ذهبية المولود شعرت بفرحة غامرة مع صويحاتها، وقد طمأنهنّ القائد بعودة أزواجهنّ بعد عشرة أيّام لتكتمل الفرحة لكن إلى حين، فعند عودة الرّجال من العمليّات الفدائيّة، وبقائهنّ في المعسكر فترة تقرّر إرسالهنّ إلى بلد عربي شقيق حتّى تضع الحرب أوزارها، وكلّ هذا نخوة من الرّجل الجزائري وخوفه على المرأة من أن يصيبها مكروه معيّن.

وتختم القصة بنيل الاستقلال وعودة النّساء إلى القرية "ومرّت الأيّام وتتالت الشهور، خلالها عدنا إلى قريتنا وقد رفعنا الرّايات، ورفعنا الحناجر بالرّغاريد والأناشيد الوطنيّة"<sup>45</sup>، وفي النّهاية تؤكّد القاصّة بقاء النسوة الأربعة، واستشهاد أزواجهنّ، وهذا نضال آخر يضاف إلى السّجل الحافل للمرأة الجزائريّة؛ التي كابدت ولا زالت تكابد كلّ الصّعوبات من أجل عيش سعيد، وراحة أبدية لها ولوطنها "عدنا كما خرجنا أربعة نساء، فرساننا

اختاروا الخلود جميعهم استشهدوا فداء للوطن، ولم نعش في كنفهم غير سويغات مسروقة من عمر هذا الزّمن المرّ<sup>46</sup>.

عمر ملؤه الحزن والاضطهاد من نير الاستبداد حاولت القصّة في الجزائر على غرار الأنواع الأدبية الأخرى رصده، وحبكه بامتياز، وهو الأسلوب المتقرّد الذي طبع الكاتبة؛ حيث قالت في الأخير: "الشعر أبيض والظّهر انحنى، والذاكرة كلّت من اجترار الماضي، هذا الإشعاع الرّباني الذي لن ينطفئ ولو كره الحاقدون"<sup>47</sup>.  
عن الاستعمار قالت وعن الثّورة دوّنت، وعن مساهمة المرأة أيضا نقلت القاصّة في قصة الهدية؛ التي اختارتها كعنوان هدية الصّبر الطّويل بعودة الوليد وحصول الاستقلال، هذا النّمودج يعكس قدرة المرأة، ووضعها ليس في مقعد التّاريخ الحافل؛ بل في مقعد الأدب المتوّج برؤية تفاؤليّة، وأسلوب بالغ أتقن الحبك، واستطاع التّليغ فبالفعل صمد التّاج رغم الانعراج في قصّة الهدية لجميلة خمّار.

#### خاتمة:

من النّتائج التي توصلت إليها الورقة البحثيّة نذكر:

✚ تعتبر القصّة حادثة أو مجموعة حوادث يرويها كاتب بأسلوب فنّي.. والفنّ القصصي من أشهر أنواع النّثر، وهو لا يقتصر على نوع واحد فمنه الرّواية، والقصّة القصيرة والأقصوصة، والأمم عرفت في نشأتها الأولى الأساطير، والحكايات.

✚ كما أنّ القصّة القصيرة فنّ حديث العهد، لم تعرفه الآداب الغربيّة إلّا منذ حوالي قرن فقط، ويعود تاريخ ظهورها إلى القرن التّاسع عشر، وقامت أولى المحاولات في القرن الرّابع عشر في روما داخل حجرة فسيحة من حجرات قصر الفاتيكان، كانوا يطلقون عليها اسم مصنع الأكاذيب.

✚ تأخّر ظهور الفنّ القصصي في الأدب العربي، لكنّه ازدهر بفضل التّلاقح الفكري، والبعثات العلميّة وحركة التّرجمة، وظهر له رواد أمثال محمود تيمور، حسين هيكل، وغيرهم.

✚ وقد عرفت الجزائر لونيّن من الكتابة بالّلغة العربيّة والفرنسيّة، كما أنّ الأدب الجزائريّ عموماً شهد قبل انبعاث الهبّة النّهضويّة التي كانت إرهاباتها بالمشرق العربيّ ركوداً، وحركة متناقلة الخطى على كلّ الأصعدة، وبالأخصّ في المرحلة الكولونياليّة، لكن ما إن انطلقت ثورة التّحرير حتّى انتشرت يقظة شملت مجالات، وميادين عديدة، والتي كانت القصّة القصيرة من بينها.

✚ تضاربت الآراء حول الرّيادة الأولى للفنّ القصصيّ في الجزائر، فمنهم من يردّها إلى قصّة عائشة، ومنهم من يجعل قصّة فرنسوا والرّشد هي القصّة الأولى كتبت في هذا المضمار، إضافة إلى قصّة دمعة على البؤساء، ويصعب تحديد النّص القصصيّ الرّياضيّ في الجزائر.

✚ والمتأمّل في سيرورة هذا الفنّ في الجزائر يلاحظ بأنّه مرّ بتحوّلات كثيرة بدءاً بالمقال القصصي، ثمّ الصّورة القصصيّة، وغيرها من المراحل التي أثبتت بأنّ القصاص في الجزائر خاضوا في كثير من المواضيع التي استلهموا نواتها من وقائع الحياة، وتاريخ الجزائر، وما تركه الاستعمار من آثار في نفوس الجزائريّين، بل حتّى مع كلّ فترة زمنيّة طبعت القصّة بما يسود الواقع.

✚ برعت الأدبيّة جميلة خمّار في مجموعتها القصصيّة المعنونة ب: الهدية في تناول الكثير من الموضوعات والقضايا التي لها صلة بمعاناة الجزائريّين إبّان الاحتلال، ومخلفات العشريّة السّوداء، بل حتّى تصوير وضعيّة المرأة من خلال قصّة الهدية على سبيل المثال، لتظهر براعته في مجال الكتابة القصصيّة.

## الهوامش والإحالات:

- <sup>1</sup> رشاد رشدي، فنّ القصة القصيرة، مكتبة الأنجلو المصرية، (دط)، (دت)، التّقديم.
- <sup>2</sup> المرجع نفسه، ص: 01.
- <sup>3</sup> الطاهر أحمد مكي، القصة القصيرة، دراسات ومختارات، دار المعارف، ط8، 1999، ص: 09.
- <sup>4</sup> مسعد بن عبد العطوي، الأدب العربي الحديث، شبكة الألوكة، ط1، 2009، ص: 142.
- <sup>5</sup> طالب خليف جاسم السلطاني، الأدب العربي الحديث، مختارات من الشّعر والنّثر، دار الرّضوان للنّشر والتّوزيع، عمان، ط1، 2014، ص: 110.
- <sup>6</sup> المرجع نفسه، ص: 110.
- <sup>7</sup> المرجع نفسه، ص: 111.
- <sup>8</sup> عزّ الدين إسماعيل، الأدب وفنونه، دراسة ونقد، دار الفكر العربي، القاهرة، (دط)، 2013، ص: 111.
- <sup>9</sup> الطاهر أحمد مكي، القصة القصيرة، مرجع سابق، ص: 91.
- <sup>10</sup> أحمد طالب، فنّ القصة القصيرة، دار الغرب للنّشر والتّوزيع، وهران، الجزائر، (دط)، 2006، ص: 13.0.
- <sup>11</sup> الطاهر أحمد مكي، القصة القصيرة، مرجع سابق، ص: 128.
- <sup>12</sup> واسيني الأعرج، الطاهر وطار، تجربة الكتابة الواقعية، الرواية نموذجاً، دراسة نقدية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (دط)، 1989، ص: 19.
- <sup>13</sup> واسيني الأعرج، الطاهر وطار، تجربة الكتابة الواقعية، الرواية نموذجاً، دراسة نقدية، المرجع السابق، ص: 24.
- <sup>14</sup> شريط أحمد شريط، نون النسوة في الأدب الجزائري، مجلة آمال، مجلة إبداعية تعنى بأدب الشباب، تصدر عن وزارة الثقافة، الجزائر، ع: 02، ديسمبر، 2008، ص: 20، 21.
- <sup>15</sup> المرجع نفسه، ص: 22.
- <sup>16</sup> شريط أحمد شريط، دراسات ومقالات في الأدب الجزائري الحديث، منشورات المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، (دط)، 2007، ص: 08.
- <sup>17</sup> أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، مرحلة النّورة 1954-1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص: 478.
- <sup>18</sup> مخلوف عامر، مظاهر التّجديد في القصة القصيرة بالجزائر، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998، ص: 51.
- <sup>19</sup> عبد المالك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (دط)، 1990، ص: 07.
- <sup>20</sup> مخلوف عامر، مظاهر التّجديد في القصة القصيرة بالجزائر، مرجع سابق، ص: 51.
- <sup>21</sup> المرجع نفسه، ص: 51.
- <sup>22</sup> المرجع نفسه، ص: 53، 54 بتصريف.
- <sup>23</sup> جميلة خمار: الهدية، قصص، دار هومة، ط1، 2003، الجزائر، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ص: 07.
- <sup>24</sup> نفسه، ص: 09.
- <sup>25</sup> نفسه، ص: 11.
- <sup>26</sup> نفسه، ص: 12.
- <sup>27</sup> نفسه، ص: 13.
- <sup>28</sup> نفسه، ص: 13.
- <sup>29</sup> نفسه، ص: 14.

- 
- 30 نفسه، ص:16.  
31 نفسه، ص:16.  
32 نفسه، ص:16.  
33 نفسه، ص:17.  
34 نفسه، ص:18.  
35 نفسه، ص:19.  
36 نفسه، ص:43.  
37 نفسه، ص:45.  
38 نفسه، ص:46.  
39 نفسه، ص:50.  
40 نفسه، ص:54.  
41 نفسه، ص:54.  
42 نفسه، ص:57.  
43 نفسه، ص:61.  
44 نفسه، ص:66.  
45 نفسه، ص:67.  
46 نفسه، ص:67.  
47 نفسه، ص:68.